

مقهى الساعة الثانية فجرًا

حمادة حامد محمود نور الدين

في شارعٍ جانبي من وسط البلد، مقهى لا يفتح بابه إلا في الثانية فجرًا، ولا يقبل ثمن القهوة بالنقود.

عرفت لُجين ذلك في ليلةٍ دخلت فيها مخزن أبيها بعد وفاته بأسبوعين، تبحث بين كراتين الشاي عن أوراق المحل، فوجدت بدلًا منها دفترًا أسود مكتوبًا على غلافه بخط أبيها: «قوانين المقهى». وجلست على صندوق خشبي تقرأ حتى طلع الفجر.

القانون الأول: المقهى يفتح من الثانية إلى الرابعة فجرًا، لا دقيقة قبل ولا دقيقة بعد. القانون الثاني: الزبون يدفع ثمن قهوته سرًّا من أسراره، يهمس به في فم البكرة النحاسية قبل الغلي. القانون الثالث: السرّ لا يُنسى، لكنه يخفّ؛ يخرج الزبون والحمل الذي جاء به على صدره قد صار في القهوة. والقانون الرابع، وكان مكتوبًا بخطٍّ أثقل وأحرفٍ مغبرّة: «احذري: أحيانًا يدخل عليكِ من لا يبيع سرًّا... بل يشتريه.»

لم تكن لُجين تعرف أن أبيها، عبد التواب، صاحب محل الشاي الهادئ الذي لا يحكي، كان يقضي لياليه في مقهى لا يعرفه أهله. ولم تكن تعرف لماذا صمت أبوها في سنواته الأخيرة صمتًا ثقيلًا،

حتى مات فجأة عند فجرٍ من فجرات الشهر الماضي، وهو راجع من «مشوار» لم يقل لأحدٍ ما هو.

أرادت أن تقول لأمها، فلم تجد الكلمات. كيف تقول لأرملةٍ ترتدي الحداد إن زوجها كان يدير في جوف الليل مقهى للأسرار؟ لكن أمها، وهي ترى الدفتر في يدها، قالت بصوت المتعبين الذين لا يفاجئهم شيء: «كنت أشم في هدومه ريحة الهيل كل ما يرجع الفجر... وأقول: ياريتني ما أعرف.» ثم أدارت وجهها: «افتحيه يا لُجين. المقهى لو اتقفل، أبوكي يموت مرة تانية.»

فقررت أن تفتح المقهى.

وقفت الليلة الأولى أمام الباب في الواحدة وخمسين دقيقة، قلبها يدقّ دقّ البكرة على النار، وفي جيبها مفتاح أبيها وفي يدها الدفتر. وحين تمّت الثانية، فتحت الباب، فدخل مع الهواء رجلٌ عجوز لم تره، قال وهو يتخطاها: «بنّها؟ الله يرحمه... أهو حد لازم يقعد مكانه.» ولم تعرف أبدًا من أين عرف.

في الليلة الأولى جاءت عروسٌ بفستان زفافها، مزّقت ذيله على الباب، وجلست ترتجف. قالت لُجين ما تدرّبت عليه من الدفتر: «قهوتك ثمنها سرّ.» فانفجرت العروس: «أنا لا أحبه. هربت من الفرح، والناس ترقص هناك، وأنا هنا.» همست لُجين بالسر في فم البكرة النحاسية، وغلت القهوة غليانًا غريبًا، وسكبت. شربت العروس، وتنفّست أول نفسٍ عميق منذ ساعات، وقالت: «هرجع. مش عشانه... عشان أقول في وجههم كلهم: لا.» وخرجت أخفّ.

وفي الليلة الثانية جاء رجلٌ بملابس ميري يلبسها مقلوبة من العجلة، ودفع سرّه: «أخدت رشوة واحدة في عمري... وابني عرف.» وخرج بعد القهوة يقول إنه سيذهب إلى ابنه قبل الضمير.

وفي ليلةٍ ثالثة جاء شابٌّ في عمر أخيها، عيناه محمرّتان، وضع على الرخامة سرًّا صغيرًا ثقيلًا: «ضربت أخويا الصغير قدام صحابه... وماما ماتت وأنا موصّاها عليه.» وشرب قهوته، وبكى على الرخامة بكاءً خفيفًا، وخرج يقول: «هرجعله حقّه... هعتذرله قدامهم زي ما بهدلته قدامهم.»

وفي الليلة الرابعة، دخل المشتري.

رجلٌ أنيق في الستين، معطفٌ نظيف لا يشبه الفجر، وعينان تعرفان ثمن كل شيء. لم يطلب قهوة. قال وهو يمرّر إصبعه على البكرة النحاسية كأنه يعرفها: «جيت أكمل مشوارنا القديم يا بنت عبد التواب.»

شدّت لُجين على صينيتها: «مشوار إيه؟»

«أبوكي كان يبيع... وأنا أشتري. الأسرار سوق يا ابنتي، والبكرة دي أثقل خزنة في القاهرة.» وفتح حقيبةً صغيرة مليئة بالدفاتر: «بيعيهالي. هعيشك انتي وأهلك عيشة ما تعرفهاش.»

قالت لُجين بصوتٍ وجدته في نفسها: «القانون الرابع بيقول أحذر منك.»

فضحك الرجل ضحكةً طويلة، وقال قبل أن يخرج: «اسألي البكرة عن أبوكي... اسأليها إيه اللي باعه هو.» وسَلِم الباب خلفه.

وقفت لُجين وراء الرخامة تسمع خطواته تبتعد في الشارع الفاضي، وأدركت، أول مرة منذ فتحت المقهى، أن أخطر ما في الدفتر

الأسود ليس قانونًا مكتوبًا... بل الفراغ بين القوانين، الفراغ الذي كان أبوها يعرفه وحده، ومات وهو يعرفه وحده.

لم تنم لُجين نهارها. وفي الليلة الرابعة، بعد آخر زبون، أغلقت الباب ورفعت البكرة النحاسية إلى الضوء. كانت أثقل من حجمها بكثير، كأنها ممتلئة بأربعين سنة من الهمس. وقرأت في آخر الدفتر الأسود سطرًا لم تنتبه إليه أول مرة: «البكرة لا تنسى ولا تكذب. من أراد أن يعرف، فليعرف أن المعرفة لها وزن.»

غلت لُجين القهوة بلا سر، وتركت البكرة تقول ما عندها في البخار. ورأت في ركوة الفنجان ما رأت: أبوها، شابًا، في سنةٍ بعيدة، واقفًا أمام مكتبٍ كبير، يقول اسمًا واحدًا ليشتري بذلك الاسم خروجه من مصيبة. اسم صديقه. ورفيقه الذي ذُكر اسمه اختفى سنين، وخرج شيخًا، ولم يعرف أبدًا مَن ذكره.

ثم رأت المشهد الثاني: أمها على سرير المرض، والدكاترة يقولون رقمًا كبيرًا، وأبوها يركض. ورأت المشهد الثالث: المشتري الأنيق، أصغر بأربعين سنة، يسلّم أباها مظروفًا مقابل «أسرار مختارة» من البكرة... سرٌّ واحد في كل مرة، ليبيعه لمن يدفع. ورأت أباها، بعد

كل صفقة، يقف وحده أمام البكرة ويغسلها مرتين وثلاثًا، كأن الماء يغسل ما فعلته يداه.

ورأت المشهد الأخير: أباها، شيخًا، يجلس في المقهى المغلق عند الظهيرة، يحكّ صدره بيده كمن يرفع عنه حجرًا، ويقول للكراسي الفاضية: «كل يوم بقول بكرة أقفل... وكل ليلة بفتح، عشان لو حد شالته الأسرار يلاقي حد يشيل عنه.»

فهمت لُجين كل شيء. فهمت الصمت. أبوها باع من أسرار الناس مرةً واحدة في حياته، ليشتري حياة أمها، وحين ذاق طعم البيع لم يستطع أن يغفر لنفسه، فحكم على نفسه بالصمت، وجعل من المقهى تكفيرًا: كل حملٍ يرفعه عن صدر زبون، قسطٌ يسدّده لدَينٍ لا يعرفه أحد.

وظلّت لُجين جالسة حتى ابيضّت النافذة، والفنجان باردًا في يدها. كانت تعرف الآن لماذا كان أبوها يتنهّد تنهيدةً واحدة طويلة كلما ضحك: لأن الضحك كان يذكّره أنه اشترى ضحكات أهله بأسرار غيره.

وفي الفجر دخلت عليها أمها المخزن، فوجدتها باكيةً ممسكةً بالدفتر. وقالت لُجين كل شيء. صمتت الأم طويلًا، ثم قالت: «كان عايزني أعيش... فعاش هو ميت. روحي يا لُجين للراجل اللي اتباع اسمه. لو لسه عايش.»

بحثت عنه لُجين ثلاثة أيام. في البلدة الأولى قالوا لها: كان هنا ومضى. وفي الثانية قالوا: اسمعنا عنه وما شفناهوش. وفي الثالثة دلّها بائع قصب على الطريق: «العم زكي؟ ده بقاله عشرين سنة بيبيع برتقال على باب قهوة البلد، وكل ما حد يقوله إنت أبوك عمل إيه؟ يضحك ويقول: كان ليّا صاحب في القاهرة...»

وجدته في بلدةٍ على ترعة الإسماعيلية: عجوزًا يبيع البرتقال على باب قهوة بلدي. وقفت أمامه، وقالت الجملة التي تدرّبت عليها طول الطريق: «أنا بنت عبد التواب... اللي ذكر اسمك.»

نظر إليها العجوز طويلًا، وارتعشت يده على كوب الشاي، ثم فعل شيئًا لم تتوقعه: ضحك. ضحك حتى دمعت عيناه، وقال: «عبد التواب؟ عارف يا بنتي، عارف من يومها.»

«عارف؟!»

«شفته بعدها بسنين في قهوة وسط البلد، شغّال بإيديه، شايل همّ الحارة كلها على قلبه. قلت: راجل بيكفّر. ومين أنا عشان أمنّ عليه بالمغفرة؟ خليته يكفّر براحته.» وهزّ رأسه: «قولي لروحه: سامحته من زمان... بس كان نفسي ييجي نشرب قهوة مع بعض، وأقولها له في وشه.»

رجعت لُجين إلى القاهرة في القطار الأخير، والنافذة ترسم على زجاجها شوارعَ تجري. كانت طول الطريق تكرّر الجملة التي ستهمسها، ثم تمحوها، ثم تكرّر غيرها، حتى أدركت عند محطة رمسيس أن الهمسة الصحيحة لا تُكتب... إنها تخرج وحدها حين يحين وقتها.

وفي الثانية فجرًا فتحت المقهى، ورفعت البكرة النحاسية إلى فمها وهمست همسةً واحدة، سرًّا لم يكن سرّها وحدها: «يا أبي... هو سامحك. وانا سامحك. ارتح بقى.»

وغلت القهوة، وصعد البخار، ورنّت البكرة رنّةً خفيفة، أخفّ ما سمعتها لُجين منذ فتحت المقهى، كأن أثقل أسرارها خرج منها أخيرًا.

وفي تلك الليلة لم يدخل المشتري. ولم يدخل في الليلة التي بعدها. لكن لُجين لم تعد تحتاج إلى الدفتر لتعرف أنه سيعود يومًا؛ فالأسرار سوق لا يقفل، والمشترون لا يتقاعدون. غير أنها لم تعد تخاف الباب حين يُطرق في الثالثة.

وما زال المقهى يفتح من الثانية إلى الرابعة فجرًا. وما زال الزبائن يدفعون بأسرارهم الثقيلة ويخرجون أخفّ. لكن لُجين أضافت على باب المخزن، تحت قوانين أبيها الأربعة، قانونًا خامسًا بخطها هي:

«ممنوع بيع أسرار الناس... اللي عايز يبيع، يبيع سرّه هو.»

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app